المحاضرة الأولى: في مفهوم فلسفة الأخلاق وإشكالياتها التأسيسية

علي كريم

تمهيد: السياق المعرفي والضرورة الفلسفية

إن الشروع في تدريس مقياس "فلسفة الأخلاق (Moral Philosophy) "يتطلب منا كباحثين وطلاب للمعرفة أن نتجاوز الفهم السطحي المتداول للأخلاق باعتبارها مجرد قائمة من الأوامر والنواهي أو مجموعة من العادات الاجتماعية المحمودة. نحن هنا بصدد الدخول في حقل "الإيتيقا(Ethics) "، ذلك المبحث الفلسفي العريق الذي لا يكتفي بالسؤال "ماذا يجب أن أفعل؟"، بل يغوص أعمق ليسأل "لماذا يجب أن أفعل ذلك؟" و"ما هو معنى الخير؟" و"من أين تستمد القيم سلطتها؟". في هذه المحاضرة التأسيسية المطولة، سنقوم بمسح شامل وشاقولي للبنية المفاهيمية لهذا العلم، مستندين إلى التراث الفلسفي الغربي والإسلامي على حد سواء، وموظفين أحدث الدراسات الأكاديمية والمصادر المحكمة لتفكيك الإشكاليات العويصة التي واجهت العقل الأخلاقي عبر التاريخ.

إن الحاجة إلى فلسفة الأخلاق اليوم أشد منها في أي وقت مضى، في ظل السيولة القيمية (Liquid Modernity) وتداخل المعايير. لذا، فإن هذا التقرير لن يكون مجرد سرد تاريخي، بل سيكون تحليلاً نقدياً للبنى التحتية للتفكير الأخلاقي، بدءاً من الجذور اللغوية، مروراً بتشريحة العلم وأقسامه، وصولاً إلى المعضلات الكبرى كإشكالية "الوجود والوجوب" ومصادر الإلزام، وانتهاءً بتقديم رؤية مقارنة بين النموذج الغربي والنموذج الإسلامي في التأسيس الأخلاقي.

أولا: التأصيل الإبستمولوجي واللغوي لمفهوم الأخلاق

لعل القاعدة الذهبية في البحث الأكاديمي هي أن "تحديد المفاهيم نصف المعرفة". وتاريخ الفلسفة هو في جوهره صراع حول دلالات الألفاظ وانزياحاتها التاريخية. لذا، سنبدأ بتفكيك المصطلح في بيئتيه: الغربية (اليونانية/اللاتينية) والإسلامية (العربية).

الجذور الاشتقاقية في الفلسفة الغربية (Etymology of Ethics & Morality)

عند النظر في الأدبيات الفلسفية الغربية، نجد مصطلحين رئيسيين يتم استخدامهما غالباً بشكل تبادلي، وهما "Ethics" و ."Morality"لكن التحليل الفيلولوجي الدقيق يكشف عن فروق دقيقة في النشأة والتطور[1].

أ. الإيتيقا (Ethics) والإيثوس (Ethos)

تعود كلمة "Ethics" إلى الجذر اليوناني "إيثوس .(Ethos - ἦθος) "وتشير الدراسات الأكاديمية المتخصصة إلى أن هذا المصطلح لم يكن يعني "القواعد" في بداياته، بل كان يحمل حمولة دلالية تتعلق بـ "المكان المألوف للسكن (Dwelling place) "، ثم تطور ليعني "العادة (Custom) "، واستقر أخيراً ليعني "الشخصية (Character) "أو "الطبع".1

عند أرسطو، كانت "الإيتيقا" تعني دراسة سمات الشخصية الفاضلة التي تؤدي إلى "اليودايمونيا (Eudaimonia) "أي السعادة أو الازدهار الإنساني. فالسؤال اليوناني لم يكن "ما هو الواجب؟" بقدر ما كان "كيف يعيش المرء حياة جيدة؟". وعليه، فإن "الإيثوس" يتعلق بالبنية التأسيسية لفلسفة الفرد والمجتمع ورؤيتهما للكون والقيم.1

ب. المورال (Morality) والمورس (Mores)

عندما انتقلت الفلسفة إلى الرومان، قام شيشرون (Cicero) بترجمة المفهوم اليوناني "إيثيكوس (Ethikos) "إلى اللاتينية مستخدماً مصطلح "موراليس (Moralis) "، المشتق من "مورس .(Mores) "وهنا حدث انزياح دلالي خطير؛ فبينما كانت "إيثوس" تركز على

البنية الداخلية للشخصية، جاءت "مورس" لتعني بشكل أدق "العادات والتقاليد الاجتماعية2.(Social Customs & Manners) "

يرى بعض الباحثين المعاصرين أن هذه الترجمة أسست لخلط مفاهيمي استمر قروناً. فالمصطلح اللاتيني "Mores" يحيل إلى ما هو سائد ومتعارف عليه اجتماعياً، مما مهد الطريق لربط الأخلاق بالعرف الاجتماعي وسلطة الجماعة، بينما كان الأصل اليوناني يربطها ببناء الذات والفضيلة.3

ج. التمييز الأكاديمي المعاصر

رغم أن الاستخدام العام يخلط بينهما، إلا أن الفلسفة المعاصرة تميل إلى التمييز التالي:

- **الأخلاق :(Morality)** تُستخدم للإشارة إلى "الموضوع" نفسه، أي المعتقدات والقيم والممارسات الواقعية التي يتبناها الأفراد أو الجماعات حول الصواب والخطأ (الجانب الوصفي والعملي)[6].
- **فلسفة الأخلاق :(Ethics)** تُستخدم للإشارة إلى "العلم" أو الدراسة النظرية والنقدية لتلك المعتقدات. إنها الفحص المنهجي للمبررات التي تجعل فعلاً ما صواباً أو خطأً (الجانب النظري والمعياري)[1].

جدول (1): المقارنة الاشتقاقية بين Ethics وMorality

الأخلاق (Morality)	الإيتيقا (Ethics)	المعيار
لاتيني) Mores :مورس (	يوناني) Ethos :إيثوس (	**الجذر اللغوي**

المعيار	الإيتيقا (Ethics)	الأخلاق (Morality)
المعنى الأصلي	الشخصية، الطبع، المسكن المألوف	العادات، التقاليد، الأعراف الاجتماعية
التركيز الفلسفي	بناء الشخصية، الفضيلة، السعادة (أرسطو)	الواجبات، القواعد، الالتزامات الاجتماعية
الاستخدام المعاصر	الدراسة النظرية (علم الأخلاق)	الممارسة العملية والمعتقدات (موضوع الأخلاق)
البعد	فردي / باطني (في أصله)	جماعي / اجتماعي (في أصله)

التأصيل اللغوي والاصطلاحي في التراث العربي (الخُلُق)

في فضائنا التداولي الإسلامي، لا يمكننا الاكتفاء بالترجمة الغربية. فمصطلح "الخُلُق" في اللسان العربي يحمل كثافة وجودية تتجاوز مجرد "العادة."

أ. الدلالة اللغوية: بين الخَلْق والخُلُق

تُعد مادة (خ ل ق) من الأصول العظيمة في العربية. يقول ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" إن للمادة أصلين: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملامسته[8].

- **الخَلْق (بفتح الخاء)**: يشير إلى الصورة الظاهرة للإنسان (Physical Form) ، وهي الهيئات والأشكال التي تدرك بالبصر[8].

- الخُلُق (بضم الخاء واللام أو سكونها): يشير إلى الصورة الباطنة (Inner Form) ، وهي النفس وأوصافها ومعانيها التي تدرك بالبصيرة.8

هذا التمييز الدقيق الذي أورده الراغب الأصفهاني والقرطبي وغيرهما يوضح أن العرب ربطوا الأخلاق بـ "السجية" و"الطبع" الراسخ في النفس. فالخُلق هو "الدين والمروءة"، وهو الهيئة الباطنة التي تقابل الهيئة الظاهرة.8 وكما أن الخَلْق (الجسد) له أوصاف كالحسن والقبح، فإن الخُلُق (النفس) له أوصاف مماثلة.

ب. التعريف الاصطلاحي الفلسفي: إشكالية الطبع والتطبع

انتقل فلاسفة الإسلام من اللغة إلى التعريف الماهوي (الحدي)، وهنا نجد تعريفين مركزيين شكلا عمدة الفكر الأخلاقي الإسلامي:

تعريف ابن مسكويه (المعلم الثالث):

في كتابه "تهذيب الأخلاق"، يعرف ابن مسكويه الخُلق بأنه: "حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية".10

- **تحليل التعريف** :يركز ابن مسكويه على عنصر "التلقائية". فالخلق ليس الفعل الذي يتردد فيه الإنسان ويفكر، بل هو ما يصدر عنه عفوياً. هذا لا يعني غياب العقل في التأسيس، بل يعني أن الصفة تمكنت من النفس حتى صارت طبعاً. ويميز ابن مسكويه بين ما هو "طبيعي" (فطري) وبين ما هو "مكتسب" بالعادة والتدريب، مؤكداً قابلية الأخلاق للتغيير[10].

تعريف الإمام الغزالي:

في "إحياء علوم الدين"، يطور الغزالي التعريف ليصبح أكثر دقة: "هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية".9

- **الشروط الغزالية** :يضيف الغزالي قيد "الرسوخ". فمن يصدر عنه الكرم نادراً أو بصعوبة لا يسمى "كريماً". لكي يسمى الفعل خلقاً، يجب أن يكون هيئة ثابتة (Stable Disposition) ومستقرة. إذا كان الفعل يصدر بتكلف ومشقة، فهو "تخلق" وليس "خلقاً" بعد. الغاية هي وصول النفس إلى حالة من اليسر في فعل الخير[11].

نلاحظ تقاطعاً مذهلاً بين "الإيثوس" اليوناني (بمعنى الطبع الراسخ) وبين "الخُلُق" العربي (بمعنى الهيئة الباطنة الراسخة). كلاهما ينظر للأخلاق ليس كمجرد "أفعال" معزولة (Doing)، بل كحالة وجودية للكينونة.(Being)

محاضرات فلسفة الأخلاق